قضية الأطفال

لحضرة الأستاذ زكى المهندس

أستاذ التربية بدار العلوم

نعم هى قضية ولكنها ليست من هذا الطراز الذى ألف الناس أن يقرءوه فى الصحف او يتنادروا به فى مجالسهم ويسمروا به مع رفاقهم بل هى قضية لها شأنها وخطرها ، ولها أثرها البعيد فى حياتنا جميعا كآباء ومعلمين . وماظنك بقضية تتناول مئات الألوف من أحداث مصر ؟ بل ماظنك بقضية يتوقف على الفصل فيها حياة الجيل المقبل بأسره ؟ أليس أطفال اليوم هم شباب الغد ورجال المستقبل ؟ تلك القضية هى التى سأتحدث إليك فيها

فى مثل هذه الأيام من العام الماضى قامت وزارة المعارف بتغيير واسع النطاق فى منهاج التعليم الثانوى فتناولته بالحذف والتحوير ونقل بعض المواد أو الموضوعات الدراسية من سنة إلى أخرى وقد حمد لها الشباب المتعلم هذا الصنيع ، واليوم تقوم الوزارة بعقد اللجان المختلفة لدراسة المنهاج الابتدائى تمهيدا لتغييره كذلك

وإن تلك الطفولة البريئة الطاهرة التى تزخر بها مدارسنا الابتدائية لتغتبط أشد الاغتباط إذ تلقى اليوم بقضيتها فى اطمئنان وثقة بين جمع من ذوى الكفاية الممتازة والخبرة الناضجة من أهل التعليم والتشريع مؤملة أن تجد فى حضراتهم خير مدافعين عن حقوقها ، وهى لاتبغى شيئا أكثر من أن يسمح لها بأن تستمتع بتلك الحياة الطبيعة الخصبة تلك

الحياة الواسعة الباسمة الحرة البريئة ، تلك الحياة التى أبت المدارس بنظمها الجامدة وأساليبها المصطنعة ومناهجها المكتظة الحافلة وامتحاناتها المتوالية إلا أن تحولها إلى حياة عابسة راكدة مجدبة ضيقة ذهبت بخير مافى الطفولة من مزايا وقضت أو كادت تقضى على مامنحته الطبيعة من مواهب .

إن سنة ١٩٢٥ تعتبر بحق حداً فاصلا بين عهدين من عهود التعليم فى مصر فقد بدأت فى تلك السنة نهضة تعليمية لم تكن فى شدتها وعنفها بأقل من ثورتنا السياسية . كلنا يذكر أن النظام التعليمى القديم كان يرمى فى مجموعه إلى صوغ آلات تسخر للحكومة ولا تصلح إلا لمكاتب الحكومة ولقد كان الجزع يتولانا أحيانا والقلق يساورنا دائما كلما ذكرنا مصير أبنائنا وفلذات أكبادنا فلم يكن غريبا - وقد أصبحنا أحرارا فى تدبير شؤوننا - أن نثور على هذا النظام العتيق الذى تعلمنا فى ظله وفى كنفه نصف قرن كامل ، على أن ثورتنا فى هذه الناحية التعليمية لم تكن وليدة يومها ولا بنت ساعتها وإنما كانت تعبيرا صادقا عما كنا نحسه ونألم له ونخشى الخوض فيه هاجمنا هذا النظام القديم من جميع جوانبه ونواحيه ، هاجمناه فى خططه ومناهجه وطرائقه وأساليبه ، هاجمناه فى غاياته ووسائله وفى جميع مراحله ، هاجمناه فى كل ذلك فى غير رفق أو هوادة ، ولكن الذى لا يسع كل إنسان إلا أن يلاحظه ويأسف له هو أننا ظللنا نجهد عشر سنوات كاملة فى تجارب تعليمية من كل صنف ثم لم نظفر بعد تلك الجهود التى بذلناها بنتائج تطمئن إليها قلوبنا ، وترتاح لها نفوسنا ، فالمناهج تتغير اليوم كما تغيرت بالأمس وقبل الأمس وكما تغيرت فى سنة ١٩٢٥ وكما نخشى أن تتغير غداً وبعد غد إن أخطأنا التوفيق فى كشف العلة واستئصال الداء .

نحن أول من يدرك أن حياتنا تطورت فى جميع مناحيها تطورا تجاوز فى طبيعته ومداه ما كان يحلم به أصدق الكتاب فراسة وأبعدهم نظراً ،

ونحن أول من يدرك كذلك أن القائمين على شئون التعليم يبغون اليوم من تغيير المناهج - كما كانوا يبغون دائما من كل تغيير سابق - أن يستحدثوا نوعا من التعليم يساير حاجات البلاد ويلائم ماتطمح إليه الأمة من مقاصد وما ترمى إليه من آمال ، نحن ندرك هذا ونؤمن به ، ولكنا يجب أن نسلم بأن اختلاف الطرائق وتشعب المسالك ، وتعدد الأساليب لتحقيق هذه الغاية المرجوة قد أفضى كل ذلك إلى شيء من الإسراف فى جهود رجال التعليم كما أدّى إلى شيء من الاضطراب كان له أثره فى عمل المعلم والمتعلم كليهما .

حسبك أن تجوس بذاكرتك خلال السنوات العشر الماضية لتدرك أن جميع من تولوا مقاليد الوزارة وهيمنوا على التعليم كانوا دائما جد حريصين على وضع سياسة تعليمية ثابتة ، ولكنهم كانوا يعملون على تحقيق هذه الغاية بطرق مختلفة وأساليب شتى ، فقد كانت اللجان تؤلف أحيانا من رجال الديوان وحدهم ، وأحيانا يضم إليهم بعض المتصلين بالمدارس عن كثب من نظار ومدرسين . وآونة يشترك معهؤلاء جمع من ذوى الكفايات الفنية والثقافات العالية ، وإن ننس لانس ذلك المؤتمر الحاشد الذى جمعه وزير المعارف السابق ، فقد كان تؤامه كبار رجال التعليم ومديرى المصالح الفنية فى مصر ، ومدير الجامعة وعمدها . دنا إلى عدد كبير من القائمين على التعليم فى المدارس الأجنبية ممن لم تطأ أقدامهم شارع الطرقة الغربى غير مرة واحدة كانت هى الأولى والأخيرة . لم يكد هذا المؤتمر يجتمع حتى تفرق ولم يكد يتفرق حتى أصبح - كما قال النحويون - فى خبر كان

ليس لهذا كله إلا تأويل واحد ، هو أن العلة مازالت كامنة والداء ما فتئ دفينا فى بعض النواحى من نظامنا التعليمى ، وأن جميع ما قمنا به من تجارب وكل ما أدخلناه من ضروب التبديل ، وما استصدرناه من لوائح

وقوانين ومنشورات قد عجز إلى الآن عن كشف العلة واستئصال الداء أو عجز على الأقل عن تدبير الدواء الصالح

هذه ملاحظات عامة نسوقها بكل تواضع لتكون بمرأى من حضرات السادة أعضاء اللجان لعلهم واجدون فيها مايضيء السبيل أمامهم ولكنا نتحدث هنا عن قضية الأطفال

أما أن التعليم الابتدائى لايزال فى حاجة إلى تغيير واسع النطاق فما لا يختلف فيه رجال التعليم ،ولكن أين موطن العيب فى هذا النوع من التعليم ؟ وإلى أى النواحى يجب أن نولى وجوهنا لكشف هذا العيب وعلاجه ؟ فهل الفكرة العامة التى تسيطر على تعليم النشء الصغير خاطئة أوقاصرة ، أو أن أعمال التعليم نفسهاعاجزة مقصّرة ؟ هل العيب واحد من هذين الأمرين أوهماجميعا ، أولا هذا ولا ذاك بل هو التنافر وعدم الانسجام بين المبادىء والأعمال ؟ أليس من المحتمل أن تكون علة الضعف هى الامتحانات والعناية بها والإسراف فيها ، أوهى المناهج وما تحمله من مسائل لاتسيغها تلك المدارك الفجة ولا تحتملها تلك الكواهل الصغيرة اللينة ، أو هم المعلمون وطرائقهم وأساليبهم ،أوالنظم المدرسية العامة ، وما هى عليه من شدة أو لين ؟ نقول أليس من المحتمل أن يكون واحد من أولئك أو تكون كلها أو بعضها موطن الضعف وعلة النقص فى تعليم هذا النشء الصغير ؟ كل هذا جائز محتمل ولكنه يعنى أن الشروع فى أى تغيير مهما كان نوعه لايمكن أن يفيد الفائدة المرجوة مالم نتعرف الداء فى مواطنه ونتحسسه فى مظانه ، أما أن تقتصر أعمالنا على تغييرات جزئية من حذف مادة وإضافة أخرى أو ، ترحيل ، موضوع أو جزء من موضوع من سنة إلى سنة سابقة أو لاحقة فكل ذلك لايعدو أن يكون من باب التخفيف أوالتسكين المؤقت ولكنه لايؤدى بنا إلى تلك الغاية

التى ننشدها جميعا من إقامة نظامنا التعليمى على أساس ثابت مكين

ويخيل إلينا بل نكاد نجزم بأن الفكرة العامة المسيطرة على التعليم الابتدائى هى موطن الداء وأس البلاء، نعم هى الفكرة العامة التى تحتاج إلى إعادة النظر قبل أن نشرع فى تعديل المنهاج، فما الأساس الذى كان وما زال يقوم عليه منهاج المدارس الابتدائية فى كل تعديل سابق؟ ما الغاية التى نرمى إليها من التعليم الابتدائى؟ جميع رجال التعليم يجيبونك من فورهم بأن غاية هذا النوع من التعليم « إعداد الأطفال للمدارس الثانوية » وقد يردفون جوابهم هذا بأن نحو ٨٥ ٪ ممن أتموا المرحلة الابتدائية يقصدون إلى المدارس الثانوية ولا يبغون عنها حولا، أو على الأقل كانت الحال كذلك من بضع سنوات قبل انتشار المدارس الصناعية، ومن ثم كان كل تغيير يراد إدخاله على منهاج الابتدائى يجب أن يجرى فى ضوء هذه الفكرة وفى حدودها فإذا لاحظت أن منهاج التعليم الثانوى قد عدل فى العام الماضى وحدد مبدؤه ونهايته وعرف أوله وآخره وإذا لاحظت كذلك أن من الواجب — كما أشار معالى الوزير فى خطبته يوم عقد اللجنة — أن نحكم الربط بين مرحلتى الابتدائى والثانوى ونؤكد الصلة بين منهاجيهما إذا لاحظت ذلك كانت النتيجة الطبيعية التى لا مفر منها والتى لا نجد عنها محيصاً هى أن الطفل فى هذه المرحلة الابتدائية يجب أن يلم بمختلف المسائل والمواد والموضوعات التى تؤهله للاستمرار فى الدراسة الثانوية. وإن شئت فقل إن منهاج الثانوى يجب أن يكون المسيطر على كل ما يعلم فى الابتدائى فإن شاء وسّع من نطاقه وإن شاء نقص من أطرافه.

هذا هو الوضع الذى شاءت التغييرات السابقة كلها أن يكون للتعليم الابتدائى فهو إعداد للتعليم الثانوى ويجب ان يلم الطفل فيه بما يؤهله للتعليم الثانوى ومادام منهاجه الثانوى قد حدد وعرفت مبتدآته فمن واجب التعليم

الابتدائى أن يزود الأطفال بما دون ذلك من حقائق ومسائل وموضوعات ليتسنى لهم الاستمرار فى التعليم الثانوى، فهل تعجب بعد ذلك إذا شعرنا كما تشعر الوزارة نفسها — بأن منهاج هذا النوع من التعليم ما زال يحمل من الموضوعات والمسائل ما لا يتفق هو ومدارك الأحداث؟

ماذا يصنع واضع المنهاج إذا كانت فكرة الإعداد للمدارس الثانوية لا تبرح خياله؟ ماذا يضع وماذا يدع إذا كان يعمل تحت تأثير الإعداد للمدارس الثانوية؟ هو لا يفكر فى هذه المرحلة التى يضع لها بقدر ما يفكر فى المرحلة التى تليها، هو لا يفكر فى الطفل ولكنه يفكر فى الشاب الذى سينتهى إليه الطفل بل هو يحرص على أن يسرع بالطفولة إلى دور الشباب ويعجل بها إلى تلك الحياة التى تنتظرها والتى لا بد ستحياها إن عاجلا أو آجلا.

هذه واحدة ولكنها لا تعبر — كما يقول الإنجليز — إلا عن نصف الحقيقة فاسمع الباقى، كيف نطمئن إلى أن أطفالنا قد ألموا إلماما كافيا بتلك الحقائق والموضوعات والمواد التى تهيئهم للتعليم الثانوى وتجعل استمرارهم فى تلك المرحلة المقبلة ممكنا ميسورا؟ جواب ذلك واضح بسيط. الامتحانات!! امتحانات شهرية، امتحانات سنوية، امتحانات شفهية وتحريرية، امتحانات تجريبية، امتحانات كلما حضر مفتش أو ألم بالمدرسة مراقب، امتحانات كلما أراد الناظر وهو لا يريد إلا الامتحانات، ولا يعمل إلا للامتحانات، امتحانات حيثما حللت وأينما ذهبت وقد سرت عدوى الامتحان إلى ما دون المدارس الابتدائية من رياض الأطفال.

وزاد الأمر ضغثا على إبالة الاعتقاد السائد بأن نتائج الامتحان مرتبطة بعمل المعلم أن خيرا فخيرا وأن شرا فشرا، وأن المعلمين يجب أن يدركوا أن الوزارة لا تتوانى فى أحدهم بالتواعى والأندام إن ساءت نتائج

الامتحان وليس المعلم وحده بل نظار المدارس ومفتشوها ومراقبوها أيضاً فقد أضيع الجميع تحت رحمة الامتحان ونتائج الامتحان. الواقع أن رجال التعليم أنفسهم قد أصبحوا فى حيرة من أمر هذه الامتحانات، فهم مضطرون من جهة إلى مجاراة سواد الناس فيما يرجونه لأبنائهم من توفيق فى الامتحانات، لكنهم يشعرون من جهة أخرى بأن عليهم تبعة شاقة نحو تعليم الأحداث تعليما ينمى مواهبهم ويهذب ميولهم ويعدهم للكفاح والمجالدة فى الحياة فهل من المستطاع أن نوفق بين الأمرين ونجمع بين الغايتين ؟ إن جميع التجارب والمشاهدات تدلنا من سوء الحظ على أن الجمع بينهما متعذر إن لم يكن مستحيلا مادام نظامنا التعليمى يسير على النهج الذى رسم له حتى الآن، فالظاهر أن العناية بالتربية والعناية بالامتحانات تسيران فى اتجاهين متضادين أو تسيران على الأقل فى خطين متوازيين يستحيل علينا أن نجمعهما فى نقطة واحدة إلا إذا أدخلنا على أحدهما تعديلا يخرجه عن نظامه وشكله وطبيعته، ولقد بذلنا فى سبيل ذلك جهوداً متصلة ولكن كفة الامتحان قد رجحت كل شىء وسادت كل شىء حتى أصبحت الشاغل الأكبر الذى تستهان فيه العزائم وتسترخص الهمم وتتنافس فيه جميع المدارس والهيئات التعليمية فإنه كلما ذكرت التربية أو التعليم وثب إلى خيالنا النهايات الصغرى والكبرى والنسب المئوية للنجاح والرسوب، أما الطفولة ومواهبها وحقوقها، أما تربية المدارك وشحذ الملاحظة واستثارة النشاط الذاتى فى الأحداث. أما تغذية العواطف وتهذيب الخيال وتقوية الشخصية وبعث الشعور بالانسانية فكل ذلك هباء فى هباء، كله عبث وباطل ومحال، كله تلفيق من مبتكرات المربين وأوهام العلماء وأحلامهم، ثم كيف تستطيع أن تحمل المدرس على العناية بشىء من ذلك وبين يديه منهاج حافل مشحون، وسوط الامتحان يلهب

ظهره ، وسيف العقوبة مصلت فوق رأسه .

هذا هو الشطر الثانى من قصة التعليم الابتدائى وهل أنا بحاجة إلى أن أسجل هنا ما تردده ألسنة رجال التعليم فيما بينهم من أن مدارسنا قد أصبحت أشبه بمعامل للنجاح فى الامتحان منها بمعاهد للتربية .

الواقع أن مشكلة التعليم الابتدائى تكاد تنحصر فى أمرين لا ثالث لهما (أولهما) العناية باختيار نوع التجارب التى تقدم للأطفال فى هذه السن الصغيرة .

(وثانيهما) الأسلوب الذى يجب أن يتبع فى تزويد النشء بهذه التجارب ، فالتعليم الابتدائى يكوّن الشطر الأكبر من الطفولة ، ويجب أن يمتاز من بين مراحل التعليم الأخرى بهذين الأمرين ، لكن فكرة الإعداد للمدارس الثانوية قد ذهبت بالأول على حين قضت الامتحانات والإسراف فيها على الثانى .

هذه صورة عامة مجملة من عيوب التعليم الابتدائى لا يخامرنى شك فى أنها ستنال من عناية اللجنة أوفى نصيب ، أما وجوه الاصلاح فسأرجئها إلى العدد التالى إن شاء الله .